

الدرس السادس والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى : { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ } [الكهف: ١١٠] .

هذا الباب ((باب ما جاء في الرياء)) أي من الوعيد الشديد والتهديد لفاعله ؛ والرياء: إظهار العمل الصالح وتزيينه بقصد مراعاة الناس وكسب ثنائهم ومحمدتهم ؛ فيزين لهم عمله من صلاةٍ أو حجٍّ أو صدقةٍ أو غير ذلك من الأعمال التي يقوم بها أو يُظهرها من أجل نظر الناس إليه ، ولهذا الرياء يتعلق بالبصر بحيث يُرى الناس ؛ فيروا بأبصارهم منه ظاهراً حسناً وهو في الواقع إنما زين لأجلهم لا لأجل الله ، وحسنه من أجل ثنائهم لا من أجل الله سبحانه وتعالى . والسمعة: وهي مثل الرياء تتعلق بالسمع ؛ فما كان من أعماله ما لا يراه الناس أخبرهم به من أجل ثنائهم ومحمدهم .

والمصنف رحمه الله تعالى عقد هذه الترجمة ((باب ما جاء في الرياء)) أي من الوعيد والتهديد في كتاب التوحيد؛ لما في الرياء من منافاةٍ للتوحيد وقدح فيه ، لأن التوحيد قوامه إخلاص العبادة لله عز وجل وإفراد الله جل وعلا بها كما قال الله سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ، والمرائي لا يجعل العمل لله سبحانه وتعالى خالصاً ، بل يجعل لأحد فيه شيئاً قلَّ ذلك أو كثر ، ولهذا يتفاوت الرياء :

- قد يكون الرياء طارئاً على العمل ، وقد يكون صاحبه مدافعاً له أو مسترسلاً له إذا طرأ على العمل .
- وقد يكون الرياء يبدأ مع الإنسان من أول العمل .
- وقد يكون رياءً محضاً خالصاً لا يقَدِّم العمل أصلاً إلا لغير الله ، كرياء المنافقين ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾

[النساء: ١٤٢] .

وهذا الرياء المحض الذي هو رياء المنافقين يُظهر الإيمان ويبطن الكفر هذا كفرٌ أكبر ناقل من ملة الإسلام . وأما يسير الرياء وما يطرأ على العمل من رياء فهذا مناف لكمال التوحيد الواجب ؛ فهو قاذخٌ في كمال التوحيد الواجب وليس قاذحاً في أصل التوحيد .

والرياء خطيرٌ على الإنسان خطورةً عظيمة ، وضرره عليه ضرر بالغ ، وهو مبطل لعمله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه وابتنى به وجهه جل وعلا ، أما العمل الذي يُجعل مع الله فيه الشركاء فإن الله يرده على صاحبه ولا يقبله منه ، ولهذا من القبيح بالعبد والشنيع بالإنسان أن يأتي بهذه الأعمال ويجتهد فيها وينصب ثم لا يجد عليها ثواباً لأنه لم يخلصها لله ، سواء كانت هذه الأعمال صلاة ، أو كانت طلباً للعلم وحفظاً لكتاب الله سبحانه وتعالى ، أو كانت جهاداً وقتالاً لأعداء الله ، أو كانت صدقةً ونفقةً وبذلاً في وجوه الخير ، أو نحو ذلك من الأعمال ، وفي الحديث : ((أول من تسعر بهم النار ثلاثة)) وذكر عليه الصلاة والسلام «من تعلم ليقال عالم ، ومن جاهد ليقال جريء ، ومن أنفق ليقال جواد» ، وهذه الكلمات تقال في حقه في الدنيا ويقال أكثر منها ، ويسمع ثناءً واسعاً وإطراء كبيراً ، فإذا كان هذا هو قصده من العمل فله ما نوى لكنه لا يجد على ثوابه يوم القيامة أجراً لأنه لم يقصد به وجه الله ، بل إن المرائين كما جاء في الحديث يقال لهم يوم القيامة اذهبوا إلى من كنتم تراءونهم اذهبوا إليهم التمسوا عندهم أجراً ، وهل يمكن أن يعطي هؤلاء من كان يرأى لأجلهم شيئاً من حسناتهم أو أعمالهم؟! لا والله ؛ فكلٌ يرى لنفسه يقول نفسي نفسي ولا يفكر في الآخر . ولهذا من الشنيع بالإنسان أن يزين الأعمال الصالحة والعبادات للناس ثم يكسب منهم ثناءً يسيراً ومدحاً ثم لا يجد على عمله ثواباً ولا أجراً ؛ فتكون مراءاته محبطةً لعمله مبذلة له ؛ ولهذا كان من المهم في فهم التوحيد وتحقيقه والعناية به الحذر من الرياء ، ولهذا عقد رحمه الله هذه الترجمة ((باب ما جاء في الرياء)) في كتاب التوحيد؛ تحذيراً من الرياء بما فيه من خطورة على التوحيد ، سواء على أصله كان محضاً وخالصاً ، أو على كماله الواجب إن كان دون ذلك .

أورد أولاً قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] . والشاهد من هذه الآية للترجمة في قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ ، والمرائي جعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً في العمل ، وسيأتي في الحديث الذي ساقه المصنف أن الله جل وعلا يقول : ((أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشَّرِّكَ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشَرَكْتُ)) ، فالمرائي أشرك مع الله غيره ، ولهذا فالآية بعمومها تدل على بطلان الرياء والتحذير منه ، وأن الرياء من الشرك بالله سبحانه وتعالى ومن اتخاذ الشركاء ؛ إن كان محضاً فهو شركٌ أكبر ، وإن كان يسيراً فهو شركٌ أصغر قاذخٌ في كمال التوحيد الواجب .

قال الله سبحانه لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ؛ أمره جل وعلا أن يخبر ويبلغ الناس أنه صلوات الله وسلامه عليه إنما هو بشر مثل البشر من ولد آدم تناسل مثلهم شأنه كشأنهم؛ يجوع كما يجوعون ويعطش كما يعطشون وينام كما ينامون ، فهو بشر صلوات الله وسلامه عليه مثل البشر ، لكن الله عز وجل ميّزه وشرفه بكمال العبودية فهو أكمل عباد الله عبادةً لله ، وميزه سبحانه وتعالى بالرسالة وأنه عبد الله ورسوله ومصطفاه وخير رسل الله سبحانه وتعالى ، فهو صلى الله عليه وسلم بشر مثل البشر مخلوق من ذرية آدم ، وعبدٌ لله جل وعلا ، والعبد لا يُعبد ولا يعطى شيء من خصائص الرب جل وعلا ، فهو عليه الصلاة والسلام بشر وعبدٌ لله جل وعلا ، والعبد لا يُعبد ، العبادة إنما هي لله ، فلا يعطى شيء من خصائص الله في ربوبيته أو أسمائه سبحانه وتعالى وصفاته ، ولا أيضا يُصرف له شيء من حقوق الله على عباده ؛ فحقوق الله لا يعطى غيره شيء منها كائنا من كان لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل .

فإذاً إظهار هذا الوصف ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ هذا إبطال للغلو فيه صلوات الله وسلامه عليه، إما بإعطائه شيء من خصائص الله أو شيء من حقوق الله على عباده ؛ فهذا كله باطل يتنافى مع وصفه بالبشرية ، خصائص الله لله ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا سمع بشيء من ذلك نهى عنه وزجر عنه أشد النهي والزجر ، مثل لما سمع امرأة تقول : "وفينا رسول الله يعلم ما في غدٍ" غضب وقال : ((لا يعلم ما في غد إلا الله)) . ولما سمع قائلاً يقول "ما شاء الله وشئت" قال : ((أجعلني لله عدلاً! قل ما شاء الله وحده)) . ولهذا نظائر كثيرة جداً في سنته صلوات الله وسلامه عليه .

فهو صلى الله عليه وسلم بشر ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ لكن ميزه الله بقوله ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ وهذه أعظم كرامة ومنّة عظيمة من الله سبحانه وتعالى بها على عبده ومصطفاه صلوات الله وسلامه عليه بالرسالة والوحي ؛ ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ .

﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿ وهذا فيه أن التوحيد هو خلاصة دعوة المرسلين وزبدة رسالتهم كما قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥] ، وقال تعالى : ﴿وَادْكُرْ

أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴿٢١﴾ [الأحقاف: ٢١] ؛ فزبدة دعوة المرسلين وخلاصة رسالتهم : الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له سبحانه وتعالى .

﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ هذه خلاصة دعوة المرسلين وزبدة رسالتهم ؛ ﴿يُوحَىٰ إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهذا هو التوحيد ؛ إنما إلهكم إله واحد لا ند له ولا شريك سبحانه وتعالى ، فهو جل وعلا إله واحد ؛ إلهٌ اتصف بصفات الكمال ونعوت الجلال ، له الأسماء الحسنى والصفات العليا ، إلهٌ واحد ، واستحق جل وعلا أن يُفرد وحده في العبادة وأن يُخلص له الدين ، ولهذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما كما في تفسير ابن جرير وغيره أنه قال في معنى الله : «ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» ؛ اسم الله تبارك وتعالى «الله» دال على الألوهية والعبودية ؛ الألوهية صفات الكمال والجلال والعظمة التي اتصف بها سبحانه وتُفرد بها فاستحق أن يُؤله وأن يُخلص له الدين ، والعبودية فعل العبد من صلاة وصيام وذل وخشوع وخضوع ودعاء وغير ذلك . فالله عز وجل هو الواحد المتصف بصفات الكمال والجلال والعظمة ، والواحد الذي يجب أن يُفرد بالعبادة فلا يُجعل معه شريك كائناً من كان لا ملك مقرب ولا نبي مرسل .

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي يخاف الوقوف بين يدي الله ويدرك أنه سيبعث وأنه يلقي الله وأن الله سبحانه وتعالى يحاسبه على أعماله في هذه الحياة ، من كان يدرك ذلك ويعيه ويفهمه ويعقله فليُعد لهذا اللقاء زاداً وليُعدَّ للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً ، سيُسأل يقف بين يدي الله تبارك وتعالى .

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهذا خلاصة ما تكون به النجاة يوم القيامة وما يكون به الفوز يوم القيامة ، لا نجاة يوم القيامة ولا فوز إلا بهذين الأمرين : ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ .

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ أي ليجتهد بأن تقع أعماله على الصلاح والسداد والإصابة وموافقة الحق والهدى ، فإن الإنسان ليس له أن يعبد الله بما شاء من الآراء والمحدثات والمخترعات وغير ذلك ، بل مطلوب منه أن يعبد الله بما شرع ، ولهذا فإن قوله ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ فيه الاتباع والافتداء والائتساء بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لأن العمل الصالح هو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما سواه محدثات وبدع ، ما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ولا شراً إلا حذرهما منه ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) حتى وإن استحسنته صاحبه ورأى أنه من أحسن الأعمال وخيرها وأجودها فإنه لا يُقبل منه ، لا يُقبل العمل حتى يكون صالحاً ، ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا وافق السنة .

قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أي لتكن أعماله كلها خالصة لله، لا يبتغي بها إلا وجه الله؛ فهذا فيه الإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى ، وهو يتناول كما قدمت بعمومه إبطال الرياء والتحذير منه .

وهذه الآية الكريمة جمعت بين شرطي قبول العمل وهما: الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام، فالله لا يقبل العمل إلا بهذين الشرطين ، قال عز وجل: ﴿لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] . قال الفضيل ابن عياض رحمه الله تعالى : «أخلصه وأصوبه»؛ هذا معنى قوله ﴿لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال : "أخلصه وأصوبه" ، قيل يا أبا علي وما أخلصه وأصوبه؟ قال : «إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص ما كان لله ، والصواب ما كان على السنة» . وهذا أثر عظيم جدًا مروي عن هذا الإمام رحمه الله تعالى وهو من أجلة علماء التابعين .

فالعامل لا يتقبله الله سبحانه وتعالى من العامل إلا إذا أخلصه الله وكان عمله موافقاً لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو معنى قول الله تعالى ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ، ومن دعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه «اللهم اجعل عملي صالحاً ، ولك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً قال الله تعالى : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيри تركته وشركه» رواه مسلم .

قال رحمه الله تعالى : ((وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً)) أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم .
((قال الله تعالى)) أي أنه حديث قدسي من كلام الله سبحانه وتعالى .

((أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) وفي رواية للحديث عند ابن ماجه ((فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أُشْرِكُ)) هذا معنى قوله ((تركته وشركه)) فلا يقبله الله سبحانه وتعالى من العامل .

قال: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك)) ؛ هذا فيه إثبات كمال غنى الله جل وعلا ، ومن أسمائه جل وعلا «الغني» ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] . فالله عز وجل الغني ، وغناه جل وعلا غنى ذاتي ، غني عن المخلوقات كلها ، والمخلوقات كلها فقيرة إليه ، وفقر المخلوقات فقر ذاتي لا غنى لها عن الله سبحانه وتعالى طرفة عين ، العرش الذي استوى عليه الرحمن جل وعلا وما دونه كلها فقيرة إلى الله والله سبحانه وتعالى غني عن المخلوقات كلها ، ولهذا هو جل وعلا بقدرته جل في علاه هو الممسك للعرش والممسك

للسماوات والممسك للأرض ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١] ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] القيوم: هو القائم بنفسه؛ وهذا فيه إثبات كمال غناه ، والقيوم: أي القائم بشؤون خلقه؛ وهذا فيه كمال قدرته جل وعلا، فالله عز وجل الغني وغناه غنى ذاتي ، والمخلوقات كلها فقيرة إلى الله جل وعلا .

وفي الحديث يقول : ((أنا أغني الشركاء عن الشرك)) ؛ وقوله «أغني» هذا أفعل تفضيل ، وأفعل التفضيل قد يستعمل في غير بابه ، ومعنى استعماله في غير بابه: أن لا يكون في المفضل شيء من أوصاف الفاضل ، مثل قول الله تعالى ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩] ، الأصنام لا خير فيها ، فأفعل التفضيل قد يستعمل في غير بابه بمعنى أن المفضل ليس فيه شيء من الأوصاف المشار إليها أو المذكورة ، يضربون له العلماء في اللغة مثالا للتوضيح يقولون : مثل لو قال قائل العسل أحلى من الملح ؛ هل يلزم من ذلك أن الملح فيه شيء من الحلاوة ؟ لا يلزم ، هذا يقال فيه : استعمل أفعل التفضيل في غير بابه . ﴿الرَّبَّابُ مُتَقَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] فقلوه ((أغني الشركاء عن الشرك)) هو من استعمال أفعل التفضيل في غير بابه، فيه كمال غنى الله سبحانه وتعالى، والمتخذون شركاء مع الله فقراء ، كل هؤلاء المتخذين شركاء مع الله كلهم فقراء لا غنى لهم عن الله سبحانه وتعالى طرفة عين .

((أنا أغني الشركاء عن الشرك)) فيه إثبات كمال غنى الله ، ولهذا لا يناسب غناه ولا يليق بغناه أن يجعل معه شريك في العمل ، فإذا جعل معه شريك في العمل رد الله العمل على العامل ولم يقبله منه ، ومن كمال غناه سبحانه أنه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين ، ولهذا قال في الحديث القدسي سبحانه وتعالى : ((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا)) ، فهو سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى ، وفي الحديث القدسي نفسه حديث أبي ذر قال: ((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْبِي فَتَضُرُّوَنِي ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي)) هو غني ؛ غني عن العباد ، غني عن توحيدهم ، غني عن صلاتهم ، غني عن صيامهم ، غني عن حجهم ، غني عن جميع طاعاتهم، الطاعات كلها لا تنفعه ، والمعاصي كلها لا تضره ﴿فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨] ، وهذا كله من كمال غنى الله سبحانه وتعالى عن المخلوقات ، فالله غني عن المخلوقات وعن عباداتهم وعن طاعاتهم وعن أعمالهم .

قال: ((أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملاً)) أي قلَّ العمل أو كثر .

((من عمل عملاً أشرك معي فيه غيبي)) أي جعل في هذا العمل جعل فيه شريكاً لله وأشرك فيه مع الله غيره ، «غيره» تتناول كل غير ، سواء كان هذا ملكاً أو نبياً أو ولياً أو رجلاً صالحاً أو غير ذلك ((من عمل عملاً أشرك معي فيه غيبي تركته وشركه)) ؛ وهذا فيه أن الشرك مبطلٌ للعمل محبٌ له لا يقبله الله سبحانه وتعالى، فيه دليل على أن الله لا يقبل العمل إلا إذا أخلص لله وابتغي به وجه الله وحده ، أما إذا كان جعل مع الله فيه شركاء رده الله على العامل ، ولهذا جاء في رواية قال: ((فَأَنَا مِنْهُ بِرِيءٌ وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ)) ، وإذا كان العمل للذي أشرك فأى شيء سيجد العامل عند هذا الذي جعله شريكاً مع الله ؟ هذا هو عين الخسران والحرام ، أعاذنا الله أجمعين ورزقنا الإخلاص في أعمالنا وأقوالنا وجميع عبادتنا .

قوله ((تركته وشركه)) ؛ الضمير في «تركته» يعود على العامل ، «وشركه» أي العمل الذي عمله وجعل مع الله سبحانه وتعالى شريكاً فيه ، فلا العامل يحصل ثواباً ولا العمل أيضاً يكون مقبولاً .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟)) قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : ((الشرك الخفي ؛ يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل)) رواه أحمد .

قال : ((وعن أبي سعيد مرفوعاً)) أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم . أنه قال : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟)) جاء في بعض الروايات للحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم ذلك عندما خرج عليهم ووجدتهم يتذكرون فتنة المسيح الدجال وأنها أعظم الفتن ، فتنة عظيمة ، ولهذا شرع لنا في كل صلاة قبل أن نسلم أن نستعيد بالله من هذه الفتنة استعادةً متكررة مستمرة ، وما من نبي بعثه الله إلا وأنذر قومه من فتنة المسيح الدجال ، فتنة عظيمة من أعظم الفتن وأشدّها وأخطرها وهي فتنة جارفة وعاصفة ومهلكة للناس ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام ((مَنْ سَمِعَ بِالْدَّجَالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ)) لا يقترب من المكان الذي هو فيه ، الاقتراب فيه خطورة عظيمة ؛ لما يحمله هذا الدجال من فتن تجرف بعقائد الناس بإيمانهم بعبادتهم .

فخرج عليه الصلاة والسلام على الصحابة يوماً وهم يتذكرون هذه الفتنة العظيمة ، ومن المهم جداً في فهم هذا الحديث أن يُستحضر خطورة هذه الفتنة فتنة المسيح الدجال وكيف أنها من أعظم الفتن وأخطرها ؛ يمر على قرية ويدعو أهلها إلى الإيمان به أنه هو الرب وأنه هو المعبود ، فإن استجابوا أمر السماء أن تمطر فتمطر وأمر الأرض أن تُنبت فتنبت ، وإن أبوا أمر الأرض أن تخرج كنوزها فتنبعه كنوزها ، فتن عجيبة وعاصفة وطارفة مذهلة للعقول، تطيش معها العقول إلا من سلّمه الله . ولهذا يجب على الإنسان أن يحذر من قربان مكانه أو الدنو منه . وبين

يدي هذا الدجال الأكبر دجاجة كثيرون يوطعون له ويمهدون له بنشر الدجل بين الناس بطرائق تفتن الناس في أديانهم ، ولهذا كما أن قوله عليه الصلاة والسلام ((مَنْ سَمِعَ بِالْذَّجَالِ فَلْيُنْأَ عَنْهُ)) يتناول أصالة الدجال الأكبر فإنه أيضا يتناول بعمومه جنس الدجال ، فكل دجال يجب على المسلم أن ينأ عنه ، وما أكثر الدجالين ، لا يخاطر الإنسان بينه ويقول أسمع وأنظر وأشاهد وأتعرّف ، ثم لا يدري وإذا بالباطل تسلل إلى قلبه ودخل إلى نفسه مما يرى من فتن تعصف وجوارف تهلك . ((مَنْ سَمِعَ بِالْذَّجَالِ فَلْيُنْأَ عَنْهُ)) فهذا يتناول أصالة الدجال الأكبر ويتناول أيضاً ما يأتي قبله من دجاجة يوطّئون لمجيئه ويمهدون لمقدمه أعاذنا الله أجمعين من فتنة المسيح الدجال .

قال : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟)) هذا أيضا فيه نصحه عليه الصلاة والسلام لأئمة وحرصه عليهم ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] ؛ ففيه نصحه صلى الله عليه وسلم وحرصه .

((قالوا : بلى)) وهذا أيضا فيه حرص الصحابة على الخير . ((قالوا بلى)) : أي أخبرنا بهذا الأمر الذي نخاف علينا منه أشد من خوفك علينا من فتنة المسيح الدجال .

((قال : الشرك الخفي)) ؛ وهذا فيه التنبيه إلى أن الشرك شركٌ جلي وشركٌ خفي ؛ الجلي : الظاهر الواضح البين ، والخفي : ضده وهو الذي يتسلل إلى القلب ويتسرب إلى النفس ، ولا يدري الإنسان عن نفسه بين وقت وآخر وإذا به دخل إلى قلبه أو إلى نفسه شيء من هذا الشرك ، ولهذا جاء في حديث آخر أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو يبين هذا الشرك -الشرك الخفي- وخطورته ، والحديث في الأدب المفرد قال : ((لَلشِّرْكِ فِيكُمْ أَحْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ)) سبحانه الله !! وانظر شدة خفاء ديب النمل حتى تدرك خطورة هذا الشرك الخفي ؛ لو كنت جالسا ومَرَّتْ نَمْلَةٌ وَمِنْ وَرَائِهَا عَدَمٌ مِنَ النَّمْلِ تَدْبُ دَيْبًا مَا شَعَرْتُ بِهَا . قال ((لَلشِّرْكِ فِيكُمْ أَحْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ)) فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟" هذا الشرك الجلي ، شخصٌ يجعل لله ندا يسجد له ويدبح له وينذر له ، قال : "وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ؟" قال : ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكُ أَحْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ، أَلَا أَذُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ قَالَ: قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)) ؛ فهذه دعوة عظيمة حافظ عليها ينفعلك الله بها «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ» .

فإذا الشرك منه شرك جلي أي ظاهر ومنه شرك خفي ، ومن خفاء هذا الشرك أنه يتسلل إلى النفوس ويتسرب إليها ويزاحم النية الصالحة التي في قلب الإنسان ، حتى إن الإنسان قد يخرج من بيته متوضئا متطهرا ليس عنده نية إلا أن يصلي لله لا يريد إلا وجه الله منذ خرج من بيته ، ثم يقف مصليا وإذا به وهو في صلاته يمر من حوله أو قريباً منه شخصٌ معظم أو له منزلة أو له مكانة فتبدأ تلك النية الصالحة يزاحمها شيء آخر ؛ التفت القلب شيئا

من الالتفات إلى هذا الذي مر به من الناس فيبدأ يزين من صلاته ، ربما أنه أحيانا يطبق بعض السنن لما وُجد في قلبه من التفات إلى هذا الذي حوله ، وتجده في نفسه يطبقها يقول في نفسه حتى يعرف أنني مثلاً أطبق السنة أو نحو ذلك .

هذا الشرك الخفي أمر خطير جداً ، ولهذا قال الأوزاعي رحمه الله : «ما عاجلُ شئاً أشد علي من نيتي» ، النية تتفلسف ويصيبها ما يصيبها ، يدهاها ما يدهاها من هذه الأمور ؛ فيحتاج الإنسان إلى معالجة للنية معالجة مستمرة ومدافعة لهذا الرياء ومدافعة لهذا الشرك مدافعة مستمرة ، إلى أن يتوفاه الله وهو في مدافعة له ، وإلا كل مرة تهجم عليه أمور تؤثر على نيته ، قد قال عليه الصلاة والسلام ((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى)) . ((قالوا بلى ، قال الشرك الخفي)) ثم بيّنه بالمثل ، بيّن هذا «الشرك الخفي» ويسمى أيضاً «شرك السرائر» . قال : ((الشرك الخفي ؛ يقوم الرجل فيصلي)) هذا الذي صلى قد يكون من بدء أمره وخروجه من بيته وتطهره ما أراد إلا الله .

((فيزين صلاته ، لما يرى من نظر رجل)) متى وُجد التزيين للصلاة والإصلاح؟ لما وُجد نظر رجل إليه بدأ يزين صلاته من أجله ، وإلا من قبل من حين خرج وبدأ في صلاته ونيته لله ، لكن لما مر به ذلك الرجل أخذ يزين صلاته .

سمعتُ -ولعلها طرفة سمعتها وأنا صغير وأقولها تذكركم الآن- يقولون رجل كان يصلي فمر به أناسٌ لهم مكانة في نفسه فزين صلاته لهم ؛ فأبدوا إعجاباً ، مروا من عنده وأبدوا إعجاباً في صلاته وقالوا كذا وكذا يمدحون صلاته وهو يسمعهم ، فلما أنهى صلاته لحقهم قال: "وأيضاً اليوم صائم" .

فمصيبية النفس مصيبة عظيمة في النظر للناس والالتفات لهم وطلب محمدتهم وثنائهم ؛ هذه مهلكة للإنسان إهلاكاً عظيماً ، وتجده نفسه إذا دخل في هذا الباب ما تشبع وتمرض والعياذ بالله ، تمرض مرضاً عظيماً ولا تشبع ويصبح يزداد مثل ما حكينا في هذه الطرفة يصبح نفسه تزداد طلباً وبحثاً وتحرياً لهذا المقام وانصرافاً عن الإخلاص لله سبحانه وتعالى في العبادة .

هنا خوف النبي صلى الله عليه وسلم الشديد على أمته من هذا الشرك ؛ ذكر العلماء أن لهذا الخوف أسباب ، قال ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي)) لماذا كان هذا الشرك أخوف وخافه النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة هذا الخوف الشديد؟

❖ أولاً : لخفائه ؛ ولهذا سمي «شركاً خفياً» ويسمى أيضاً «شرك السرائر» ، فهو شرك يدب بخفاء كما تقدم معنا أخفى من ديب النمل .

❖ الأمر الثاني: قوة الداعي ؛ قوة الداعي: أي في نفس الإنسان النفس البشرية فيها قوة داعي لطلب الثناء والمحمدة وهذا يحتاج إلى مدافعة ، إذا وُجد هذا الثناء من غير طلبٍ من الإنسان له ولم يقصده ولا طلبه هذا من عاجل بشرى المؤمن ، لكن المصيبة عندما يكون هو مراد الإنسان ومقصوده .

❖ الأمر الثالث: عُسر التخلص منه .

الخفاء ، وقوة الداعي ، وعسر التخلص منه إلا من سلّمه الله سبحانه وتعالى ، ويأتي هنا في هذا المقام الدعوة المباركة التي علّمها النبي صلى الله عليه وسلم أمته وأخبر أن من اعتنى بها فإن الله يُذهب عنه قليل الشرك وكثيره .

أحسن الله إليك : تقسيمات الشرك المعروفة الشرك أكبر والشرك أصغر ، هل الشرك الخفي نوع ثالث أو تقسيم آخر ؟

- بعض العلماء يقسمون الشرك إلى أقسام ثلاثة؛ يقولون : شرك أكبر ، وشرك أصغر، وشرك خفي ، ويجعلون هذا القسم الثالث الذي هو الشرك الخفي هو المعني هنا ؛ الذي هو الرياء وإظهار العمل والتصنع به ونحو ذلك .
- ومن أهل العلم من يجعل الشرك نوعان: أكبر وأصغر ، ويجعل الخفاء خفاء الشرك وصفٌ للأمرين . فعبادة الأصنام شركٌ أكبر وهو في الوقت نفسه جلي ، والرياء المحض الرياء الخالص هو من الأمور التي تخفى على الناس لا يرونه ، ليس شيئاً يشاهدونه فهو هذا الاعتبار خفي وهو شرك أكبر ناقل من الملة . والشرك الأصغر منه جلي مثل الحلف بغير الله أو "لولا فلان لكان كذا" ونحو ذلك من الألفاظ الشركية التي لا تصل بقائلها إلى حد الشرك الأكبر الناقل من الملة ، ومنه شرك خفي .
- فمن أهل العلم من يجعله قسمين ، ويجعل الوصف بالخفي يكون في الأكبر باعتبار وفي الأصغر باعتبار ، ومنهم من يجعله أقساماً ثلاثة .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية الكهف .

وهي قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ ، وتفسيرها مر معنا .

الثانية : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله .

ينبه رحمه الله على عظم هذا الأمر وأهمية الاهتمام به والعناية ؛ «الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء غير الله» ، وهذا الرد أخذه من قول الله جل وعلا في الحديث القدسي ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه)) ؛ ففيه رد العمل إذا جُعل أو أُدخل فيه شيء لغير الله .

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى .

ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى : كمال غنى الله سبحانه وتعالى ، ولهذا صُدِّرَ هذا الحديث القدسي بقوله جل في علاه : ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك)) .

الرابعة : أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء .

أن من الأسباب في رد العمل وعدم قبوله أنه سبحانه وتعالى خير الشركاء ، يشير إلى لفظة وردت لهذا الحديث ((أنا خير الشركاء)) ، فهذا أيضاً من الأسباب لرد العمل الذي جُعل فيه أو أُدخل فيه شيء لغير الله .

الخامسة : خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء .

أي فكيف بمن بعدهم؟ إذا كان خاف عليهم من الرياء وهم من هم ديانةً وإيماناً !! وقد قال عليه الصلاة والسلام ((خير الناس قرني)) ، فإذا كان خاف على هؤلاء الذين هم خير الناس خاف عليهم من الرياء وقال : ((ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من فتنة المسيح الدجال؟ فقالوا بلى)) أي أخبرنا بهذا الذي تخاف علينا منه خوفاً أشد من خوفك علينا من فتنة المسيح الدجال ، فإذا كان خاف على أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم من الرياء فكيف بمن هو دونهم ولا يبلغ مبلغهم ولا قريباً منهم من مبلغهم في الإيمان والديانة والعبادة والإخلاص لله سبحانه وتعالى !!

السادسة : أنه فسّر ذلك بأن المرء يصلي لله ، لكن يزنيها لما يرى من نظر رجلٍ إليه .

المسألة السادسة وهي آخر المسائل : «أنه فسّر ذلك» يعني فسر الشرك الخفي الذي خافه عليه الصلاة والسلام فسره بقوله «بأن المرء يصلي لله لكن يزنيها -أي صلاته- لما يرى من نظر رجل» ؛ من أين أخذ رحمه الله تعالى قوله «يصلي لله» ؟ تأمل الحديث ؛ قال ((يقوم الرجل فيصلي)) ، هذه الصلاة أصلاً إنما كانت لله وخروجه إنما كان لله ثم طرأ التزيين في الصلاة وشيء من التحسين فيها متى؟ عندما وُجد نظر الرجل ، قد يكون وجود هذا النظر في منتصف الصلاة أو قبيل آخر الصلاة أو في وسط الصلاة ، فوجد النظر فبدأ يتحرك في نفسه التزيين في صلاته من أجل هذا الرجل . فإذا قام يصلي لله .

فَقُولَهُ ((فِيصَلِي)) ظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ صَلَاتَهُ هَذِهِ إِنَّمَا كَانَتْ لِلَّهِ بَدْءٌ مِنْ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى الْمَسْجِدِ ثُمَّ لَمَّا رَأَى نَظَرَ رَجُلٍ إِلَيْهِ بَدَأَ يَحْسِنُ وَيُزِينُ مِنْ صَلَاتِهِ مِنْ أَجْلِ نَظَرِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ؛ فَهَذَا الرِّيَاءُ طَائِرٌ عَلَى الْعَمَلِ .

■ قَدْ يَكُونُ الرِّيَاءُ مِنْ أَصْلِ الْعَمَلِ وَمِنْ حَيْثُ بَدَأَ بِهِ وَهُوَ يَرَائِي ؛ وَهَذَا الْعَمَلُ لَا شَكَّ بَاطِلٌ الَّذِي إِنَّمَا كَانَ الرِّيَاءُ مِنْ أَصْلِهِ .

■ وَأَمَّا الرِّيَاءُ الطَّائِرُ فِي بَعْضِ الْعَمَلِ :

- إِنْ كَانَ طَرَأَ عَلَيْهِ وَدَافَعَهُ الْإِنْسَانُ وَطَرَدَهُ وَلَمْ يَسْتَرْسَلْ مَعَهُ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ وَيَثَابُ عَلَى مُجَاهَدَتِهِ لِنَفْسِهِ فِي طَرْدِ هَذَا الرِّيَاءِ وَإِبْعَادِهِ عَنْهُ .

- وَإِنْ وُجِدَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْاسْتَرْسَالِ فِي هَذَا الْعَمَلِ وَهُوَ مِنَ الْأَصْلِ إِنَّمَا أَدَّى الْعَمَلُ لِلَّهِ وَبَدَأَهُ اللَّهُ وَخَرَجَ فِي أَدَائِهِ لِلَّهِ ثُمَّ فِي أَثْنَاءِهِ فِي وَسْطِهِ مِثْلًا فِي أَوَاخِرِهِ طَرَأَ عَلَيْهِ يَسِيرُ رِيَاءً فَاسْتَرْسَلَ مَعَهُ أَوْ امْتَدَّ مَعَهُ شَيْئًا يَسِيرًا هَذَا الرِّيَاءُ وَلَمْ يَحَاوِلْ قَمْعَهُ أَوْ مَنَعَهُ أَوْ طَرَدَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَهَلْ يَكُونُ مَبْطَلًا لِهَذَا الْعَمَلِ -أَيَّ كَلِّهِ- أَوْ لَا ؟

قَوْلَانِ لِأَهْلِ الْعِلْمِ ، وَرَجَحَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَبْطُلُ الْعَمَلُ بِتَمَامِهِ لِأَنَّ الْعَمَلُ مِنْ أَصْلِهِ إِنَّمَا كَانَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وهذه المسألة من حيث الرياء هل هو رياء محض أو رياء طارئ ؟ والرياء الطارئ هل هو من أصل العمل أو في أثناءه ؟ وهل أيضا استرسل معه أو قمعه؟ تجدون فيه تفصيلا نافعا نقله الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد عن الحافظ ابن رجب رحمه الله وعلق أيضا عليه الشيخ سليمان بتعليقات مهمة ومفيدة جدا لطالب العلم ، ولو كان في الوقت سعة لقرأناه كاملا لأهميته وعظيم فائدته لكن لعله يراجع في تيسير العزيز الحميد .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .